الآثار الاجتماعية للزكاة

الحقيقة أنه ـ ومع تداخل الآثار الاقتصادية، والآثار الاجتماعية لفريضة الزكاة ـ فإن الأهداف التي نوه القرآن الكريم عنها للزكاة، هي أهداف روحية ونفسية واجتماعية، فالله تعالى يقول ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة:١٠٣].

فالعلة الأولى والأثر الأول لفرض الزكاة على المسلمين إنما هو تطهيرهم، وتطهير الأموال مما عساه يكون قد شابها من شوائب، وتطهير الأبدان مما عساه أن يكون قد وقع منها أثناء جمع المال، وتزكية النفس والروح وتخليصهما من العبودية للمال والضن به، وتعويدها السماحة به، وتقديمه لله تعالى بنفس راضية، وروح تهفو إلى ما عند الله تعالى، وتستجيب لأوامره وتعليماته. يصحب ذلك كله دعاء النبي ﷺ لمن طابت نفسه وزكت روحه وقدم حق الله وحق عباده بنفس راضية. ويتحقق من وراء هذا الدعاء سكينة النفس وانشراح الصدر، والشعور بلذة العبادة وشرف العبودية لله تعالى.

هذه المشاعر وتلك الأحاسيس التي تصاحب تقديم المال هي آثار نفسية وروحية تهدف إليها فريضة الزكاة، ولها في نفس الوقت انعكاساتها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعلى سلوك الأفراد وعلاقاتهم اليومية. تلك هي الآثار النفسية التي نوه عنها القرآن الكريم ولا يقلل ذلك من أهمية الآثار الاجتماعية والآثار الاقتصادية التي للزكاة.

وكي نتبين بعض هذه الآثار ننظر إلى الزكاة من زاويتين؛ الأولى: زاوية انتقال المال من الأغنياء إلى المستحقين، الثانية: زاوية الطريقة التي يتم بها هذا الانتقال.

الزاوية الأولى: زاوية نقل المال من الأغنياء إلى المحتاجين

لا تخرج الزكاة في جانبها العملي المادي، عن نقل قدر من المال من الواجدين له الفائض عن حاجتهم، إلى أولئك المحتاجين إليه الذين لم يتمكنوا من تحصيل ما يكفيهم بجهودهم، فإذا تم نقل هذا المال إليهم تمكنوا من سد حاجاتهم، وإقامة حياتهم، والتفرغ لأداء دورهم في بناء المجتمع، والإسهام في تقدمه على قدم المساواة مع الأولين.

هذه العملية تقيم التوازن بين أفراد المجتمع ويشعر الجميع أنهم أعضاء فيه، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثل غيرهم، ومن ثم تنتفي في هذا المجتمع عدد من الظواهر السلبية التي إن وجدت مزقت النسيج الاجتماعي، وقضت على تماسكه، وجعلته سهل الاختراق من كل من يتربص به. إن أول ما تحققه هذه العملية هو نفى الطبقية البغيضة التي يشعر بها الناس عندما تتركز الثروة عند البعض، ويفتقدها البعض الآخر، ذلك أن الطبقة ليست إلا مجموعة من الأفراد تتميز عن غيرها في مدى ما تتمتع به من نعم مرغوبة في المجتمع بسبب وفرة أو نقص ما لديها من أموال.

فإذا احتجن الأغنياء الأموال، ومنعوها عن الفقراء ظهرت الطبقية البغيضة، التي تولد الحقد والحسد والكراهية والبغضاء من غير الواجدين على أولئك المالكين وتولد الكراهية والخوف لدى المالكين، الذين لا يأمنون في ظل هذه الأحاسيس وتلك المشاعر لا على أموالهم ولا على أنفسهم، ولا على مستقبل مجتمعهم، ويصبح المجتمع فعلاً في مهب الريح، تنتابه القلاقل، وتنوشه الاضطرابات، فلا يتفرغ لبناء، ولا يقوى على تحقيق تقدم.

إذًا نستطيع القول إن من آثار الزكاة الاجتماعية والاقتصادية ما يلي:

١. تماسك المجتمع وصلابة بنائه، وقدرته على الصمود أمام التحديات الداخلية والخارجية.

٢. نزع عوامل الحقد والحسد والخوف والكراهية من نفوس الفقراء وتفرغهم للعمل والإنتاج وإثراء المجتمع بالصالح من القيم.

٣. نزع مشاعر الخوف لدى الأغنياء من المحتاجين الفقراء، ومن ثم يأمن الأغنياء على أموالهم وأنفسهم، وإتاحة الفرصة أمامهم لتوسعة مشروعاتهم وتنمية أموالهم، ومن ثم بناء التنمية وتحقيق التقدم ورفع مستوى معيشة الناس.

٤. شعور الفقراء بمسئولية الأغنياء والمجتمع عنهم، ومن ثم يخلصون في أداء أعمالهم، ويتحملون التبعات التي تلقى عليهم بروح عالية ونفوس مطمئنة.

٥. استقرار الأوضاع الاجتماعية، وشعور الجميع بالرضا والسعادة، ودعاء المحكومين للحكام، وثناء الحكام على المحكومين، بدلاً من أن يلعن الشعب حكامه، ويتبرم الحكام بالمحكومين، قال رسول الله ﷺ «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ» قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[مسلم].

الزاوية الثانية: زاوية الأسلوب الذي يتم به نقل المال من الأغنياء إلى المستحقين

كان يمكن أن تتم عملية نقل المال من الأغنياء إلى المحتاجين مباشرة، بمعنى أن يتقدم الغنى بزكاته فيعطيها لفقير أو عدد من الفقراء أو غيرهم من أصحاب الحقوق، وفى هذه الحالة يشعر الفقير بعطف الغنى عليه، ويشعر بأنه اليد السفلى، والغنى يده العليا، وأن الغنى يقوم بالإحسان عليه، ويعطيه فضل ماله.

هذا الطريق في نقل المال من الأغنياء إلى الفقراء، لم يقره الإسلام ولم ينصح به، وإنما أمر بغيره وجعل الزكاة علاقة بين الغنى وربه من ناحية، فلا يخفي منها شيئًا، كما جعلها علاقة بين الغني والدولة، من ناحية ثانية، تجمعها منه، وتحصلها كما حدد الله تعالى وبيّن في كتابه وسنة رسوله. ثم جعلها من ناحية ثالثة علاقة بين الدولة وأصحاب الحقوق، تنفقها عليهم طبقاً للمصارف المبينة في آية الصدقات الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه العلاقة الثلاثية في جمع وإنفاق الزكاة تنتج آثارًا اجتماعية طيبة، وتحول دون الآثار السلبية.

وأهم الآثار النفسية التي ينتجها توسط الدولة بين الأغنياء والمستحقين للزكاة (إذ تأخذ من الأولين وتقدم للآخرين) هي:

١. توسط الدولة في هذه العملية، يحول دون أن تصبح العملية إحساناً من الواجد على غيره، فلا تغرس في نفس الآخذ شعوراً بتفضل الغني، ولا تجعل له في عنقه منة.

٢. عندما تقدم الدولة هذه الموارد إلى من يستفيد بها من أصحاب الحقوق، فإنها لا تمن عليهم، ولا تعطيهم من أموالها، فما ذلك إلا حق المحتاج قرره الله تعالى له في المال الذي استخلف عليه الجميع، ومن ثم فلا منة لأحد عليه، فلا الدولة لها منه، ولا الأغنياء لهم المنة، بل المنة لله تعالى على الجميع يقول سيدنا عمر ﷺ عندما حدث عن زيادة العطاء عن حاجة الناس يقول: «هو حقهم وأنا بوصوله إليهم أسعد به منهم، ولو كان من مال الخطاب ما أعطيتهم منه شيئًا» فليس من

حق ولى الأمر أن يمن على الشعب بأنه قدم إليه كذا أو كذا، وبني له كذا وكذا، فليس ما قدم وما بني من ماله أو مال أبيه، وإنما هو مال المجتمع، يجب أن ينفق على مصالحه، دون منة لأحد على الناس.

٣. بقيام الدولة بهذا الدور ـ دور الوسيط بين الأغنياء ومستحقي الزكاة ـ تنزع الشعور بالتفضل من نفسية المالك، وتنزع الشعور بالإحسان من نفسية المستفيد، وبذلك تكون طريقة الإسلام في تقديم المال إلى المحتاجين لم تعط الفرصة لظهور أي صراع ولو نفسي في المجتمع، وتبقى العلاقة بين أفراد المجتمع في إطارها الصحيح، إطار الأخوة الإسلامية، وإطار المساواة التامة بين الجميع، ويعيش الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد.

٤. في ظل هذا المناخ يتفرغ الناس للبناء والتعمير وتحقيق التنمية الاقتصادية ونهضة المجتمع.